مذهب أهل البيت عليهم السلام بين الضياع والتضييع

فالشيعة يرون أنهم هم وحدهم من نجح في مضمار التواصل والتداخل مع أهل البيت عليهم السلام .. ويرون أن غيرهم تخلف وحاد، والبعض ربما تمادى في البعد عن أهل البيت عليهم السلام كثيرا !!

ولكي نرى تجربة الآخر في الدفاع عن نفسه تجاه هذه الدعوى، سوف نجمع الكلام كله في نقطة واحدة وهي:

المذاهب الفقهية:

إن أهم طريق ديني لا يمشي فيه الناس بلا قيادة وبلا زعامة هو " الفقه "، فلا ترى إلا متمذهب بمذهب ومنتم إلى فريق فأين مذهب أهل البيت عليهم السلام بين تلك المذاهب ؟؟

ربما يعتبر البعض هذا السؤال قفزة على سؤال آخر كان يجب البدء به أولا وهو:

ما هي ركائز الظهور والترسمل في المذهب وهل هي موجودة ومتوفرة في مذهب أهل البيت عليهم السلام أم أن نصيب غيرهم كان أكبر فلا لوم إذاً في تقديم هذا وذاك ممن توفرت فيهم الدواعي التي لم تتوفر في أهل البيت عليهم السلام أنفسهم ؟؟

ركائز الظهور والترسمل:

1 الورع والزهد الكبيران الذان يكشفان عن كون رأس المذهب مأمونا على الدين .

2 علم صاحب المذهب المزعوم، وتقدمه على من سواه من الأقران والأتراب أو مساواته لهم، ويثبت هذا بشهادة المعاصرين له .

3 تصدره، وسعة ممارسته فلا يكون معزولا عن الناس باختياره .

4 الإلتفاف حوله أي القبول به من قبل العام والخاص .

ونحن حينما نقيس بهذه الركائز نجدها في أهل البيت عليهم السلام أوضح من الشمس وأبين من الأمس !! وما أكثر الحكايات ذات الدلالة والشهادة على هذا المعنى ولنستمع إلى قسم منها:

واحد: يطالعنا الشهرستاني بهذا التقييم لجعفر بن محمد عليه السلام: "" جعفر بن محمد الصادق هو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام عن الشهوات...."".

الملل والنحل:1/ 166.

وهذا النص له إخوة عديدة من النصوص والكلمات في حق جعفر ومن تقدم جعفر أو تأخر عنه من سادة أهل البيت الشريف وقد تناقلها نقاد الرجال ، وهي جميعا تكفل لنا الركيزة الأولى فيهم ..

اثنان: يتحدث البيهقي في كتابه القضاء والقدر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ويقول: "" أخبرنا ابو عبد الله الحافظ قال سمعت أبا الحسن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسن بن جعفر المعروف بالموسوي بمدينة رسول الله صلى الله عليه واله في الروضة يقول: سمعت أبي يذكر عن أبائه: أن علي بن موسى الرضا كان يقعد في الروضة وهو شاب ملتحف بمطرف خز فيسأله الناس ومشايخ العلماء في المسجد فسئل عن القدر فقال...."".

ذيل تاريخ بغداد ابن النجار البغدادي:ج4/ 138 . القضاء والقدر للبيهقي:ج1/ 426

وهنا عبارات تجعلنا ندور معها في شكل قهري وهي:

ـــ ((وهو شاب))، فنفهم أن هذا السيد من سادات أهل البيت عليهم السلام كان متصدرا ولم يكن منكفئا على نفسه، ولم يكن نائيا عن الساحة في أول شبابه وإن هذا الشيء يلفتنا كما ألفت الراوي بل الرواة الذين تناقلوا الخبر.

ـــ ((كان يقعد)) وهذه الجملة تفيد الاستمرار فلم يكن هذا محض صدفة أو فترة عابرة .

ـــ ((يسأله الناس))، أي قد تمت له المقبولية عند العام من الناس .

ـــ ((مشايخ العلماء))، ومرة أخرى أراد الحدث أن ينطق عن شيء مهم وهو أن مقبولية علي بن موسى

لم تكن حالة تسامحية مبنية على التسامح الذي نراه في حياة الناس العوام . . بل إن الأرفع من العوام وهم العلماء يطلبون ما عنده أيضا . . أقول وليس هؤلاء العلماء ممن هم في الطبقة الثانية أوالثالثة مثلا.. بل هم مشايخ العلماء والبارزون والعظماء بينهم فكلهم يرجع إليه بالسؤال والاستفادة !!

وهذا يدلنا على موضع الركيزة 4-2 في حياة ثامن الأئمة الهداة عليهم السلام حيث العلمية والتصدر والالتفاف حوله وأما الأولى فليست بموضع شك لدى أحد من نقاد الرجال .

هذا فيما يخرج إلينا من هذه الحكاية وثمة أمور أخرى تستوقفنا في حكايات مماثلة مع أئمة آخرين من شيوخ بيت الطهارة

ثلاثة: يروي سفيان بن عيينة عن الزهري قال دخلنا على علي بن الحسين عليه السلام فقال: يا زهري فيم كنتم؟ قلت تذاكرنا الصوم فأجمع رأيي ورأي أصحابي على أنه ليس من الصوم شيء واجب إلا شهر رمضان فقال يا زهري ليس كما قلتم الصوم على أربعين وجها إلى أن قال: وأما صوم المريض والمسافر فإن العامة اختلفت فيه فقال بعضهم يصوم وقال قوم لا يصوم وقال قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر، وأما نحن فنقول يفطر في الحالين فإن صام فعليه القضاء قال تعالى: {فعدة من أيام أخر}..

حلية الأولياء:3/ 141.

فإن تسأل عن التصدر فهذا هو علي بن الحسين يتدخل لتصحيح الأخطاء حتى وإن لم يسأل !!

وإن تسأل عن الناس وأنها لم تفهم من أهل البيت عليهم السلام أن لهم فقها ولا مذهبا لأن أهل البيت لم يعملوا على ذلك ؟

فهذا هو بنفسه يقول: "" وأما نحن فنقول يفطر في الحالين"" !!

وهي كلمة عميقة جدا

لأنه قد تحدث عما في أيدي الناس

ثم ذكر ما في أيديهم ولم يجعله رأيا له هو لوحده، بل أشار إلى عموم أهل البيت بقوله: " نحن" !!!

فلما يـُـــتركُ مذهبهم بالرغم من كل هذه الدعوى الفصيحة ؟!!

وسأعود قريبا لأطبق عليها رؤية أبي حنيفة فانتظر وانظر..

أربعة: إن المنصور الدوانيقي العباسي بعث إلى أبي حنيفة فقيه العراق وقال له إني أرى الناس قد افتتنت في جعفر بن محمد وطلب منه أن يعد له من المسائل ما يعجزه فلما حل الموعد ودخل جعفر بن محمد مجلس المؤامرة يقول أبو حنيفة داخلني من الهيبة ما داخلني عند رؤيته ثم طرح عليه مسائله فصار يجيب عليها ويقول:"" أنتم تقولون كذا وكذا... وأهل المدينة يقولون كذا وكذا..ونحن نقول كذا وكذا..."" فقال أبو حنيفة إن جعفر هو أعلم الناس اوليس قد روينا أن أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس !!

تهذيب الكمال للمزي:ج2/ باب الجيم. 279 ورواه العديد أيضا كالذهبي في سير أعلام النبلاء.

وكل الذي أكدنا عليه في حكاية الرضا عليه السلام وحكاية زين العابدين سابقا يجوز في هذه الحكاية أيضا حذو القذة بالقذة !!

فعموم الناس كانت تحف به وهذا هو ما يبين من قول المنصور"" افتتنت في جعفر"".

ومشايخ الناس تعترف بتقدمه عليه وهذا الذي يبين من قول أبي حنيفة واعترافه بأعلميته ..

زائدا على ما استمعنا من كلام الشهرستاني في معنويتي الورع والزهد التام والبالغ الذي كان يعيشه هذا الإمام العظيم من وجوه أهل البيت عليهم السلام .

فإن الكثير تعامى عن قوله وقول علي بن الحسين عليهما السلام: "" ونحن نقول كذا وكذا ""، وكأنها لا تعني دعوته إلى مذهبهم بل لا ترى في المتقدمين والأوسطين من علماء السنة من يستظهر هذا المعنى من هذه العبارة فهل هم لا يعلمون أم لا يريدون ؟؟

لست معني بذلك !!

ولكن تجب الشهادة بالحق لصالح الشيخ العلامة المعاصر: وهبة الزحيلي في كتابه الفقه الإسلامي وأدلته حينما نسب تأسيس مذهب الإمامية إلى جعفر مباشرة فقال: "" الإمام أبو عبد ا جعفر الصادق مؤسس مذهب الإمامية "".

الفقه الإسلامي وأدلته1/ 58

ولكن أين فقههم ؟؟

سؤال يضرب بالحيرة على العقول . .

فالرضا عليه السلام ذاك الذي لا يستحي شيوخ العلماء من أن يقصدوه و يستفتحوه بالسؤال لا يعرف له عند الآخر سوى فتوى واحدة وهي الجهر ببسم ا الرحمن الرحيم ويا ليتها جاءت في كتب الفقه أو الرواية إنما ذكرها عابرا ومستطردا بعض المترجمين فقط ؟؟؟

بماذا يعتذر المجتمع العلمائي السني ؟

لقد القوا ـــ في ضمن حملة السجالات المذهبية ـــ بإجابات كان لها الدور في ترسيخ الشبهة حولهم أكثرهم؛ إذ كانت دفاعات ضعيفة تفتح للإشكال بابا بعد باب..

فمن تلك التي راجت وماجت على ألسنة الخطباء ومحررات الكتاب: أن الإمام الصادق عليه السلام احتوشه الكذبة من الشيعة يقول الدكتور طه الدليمي في كتابه أسطورة المذهب الجعفري: "" لقد كثر الكذب على جعفر لهذا تحاشى العلماء الأمناء كثرة الرواية عنه "".

فإن كان بعض إخواننا أهل السنة صدقوا بهذا الدفاع وأرضاهم هذا التبرير فذلك يدل على المخاطرة بالفكر في هذه المنعطفات الفكرية الحادة؟!

وهذه بعض من الاسفهامات الجاهزة التي لا يمكن المخاطرة معها

1 إن الذي تصدى لعرض مذهب أهل البيت عليهم السلام على الناس بقوله:"" نحن نقول كذا ""، والذي التف حوله الناس وشهدوا بعلمه وتفوقه ليس هو الصادق فقط ليأتي هذا الاعتذار الغريب فأين البقية ؟

2 كل من له أدنى دراية بعلم الحديث والرواية يعرف بأن شيخ الرواية والحديث وأن عالم الفقه لا يأتي الناس ولكن يؤتى ويأخذ عنه وربما قصدوه من الأقاصي . . وهنا يركز السؤال كما تركز الحربة :

لما لم يقصد الصادق رجال السنة وعلمائها وإن كانوا قصدوه ـــ كما هو شهادة كتب الرجال فيما نقلته عن مالك وغيره ـــ لما تخلو عن الرواية والنقل عنه فيما بعد حتى بقي الكاذبون والمفترون عليه بلا مزاحم ؟

إذن فالغلطة غلطة من ؟

هل هي غلطة من كان يكذب على الصادق عليه السلام ؟

بالطبع لا !!

لأن الرسول صلى ا عليه واله كثرت عليه الكذابة ـ حسب اتفاق المسلمين ـ ولكن تصدي المأمونين من حوله وعدم فتح الفرصة لتفرد الكذبة أبطل تلك الخطة ..

فلما لم يتصدى علماء السنة لابراز ما اعترفوا به لأهل البيت عليهم السلام على مستوى النظرية ؟!!!

3 إن هذا التوجيه ـــ الأضعف فيما سمعته ـــ طعن من الخلف في سادة أهل البيت عليهم السلام ؟! لأنه يؤول إلى اتهامهم بالتسامح مع الكذبة والضعفاء وأنه لم يكن في مجالسهم إلا المتردية والنطيحة ؟!

ابن القيم بن الجوزية:

وإن هذا الاسلوب الفاتر نفسه يكرره ابن القيم فيما يخص فقه علي عليه السلام يقول في إعلام الموقعين: "" وأما علي فانتشرت أحكامه وفتاواه لكن قاتل ا الشيعة أفسدوا كثيرا من علمه بالكذب عليه لهذا تجد العلماء من أهل الصحيح لا يعتمدون من حديثه وفتاواه إلا ما كان من أهل بيته وابن مسعود وفلان وفلان... وكان يشكو عدم حملة العلم الذي أودع عنده يقول: إن هاهنا علما لو أصبت له حملة"".

ونحن نرجع على ابن القيم وكل من له في هذا الجواب فرجا ومخرجا من الشبهة ورجوعنا في سؤال:

من هؤلاء الذين خاطبهم علي عليه السلام وتصدى بعلمه لهم وأشار عليهم بعلمه ولم يهبوا لحمله بل أعرضوا عنه؟

وما هي نسبة الصحابة فيهم وأيضا ما هي نسبة التابعين والمشايخ البارزين فيهم ؟

أليس هذا طعن من علي عليه السلام في كبار الشخصيات من حوله حيث أهملوه وتجنبوه ولم يقبلوا عليه كما يجب ؟

وهل ترضى يا بن القيم في أن تكون كلمة علي التي عَـرّفنا بها على علمه بل وكلمة الرسول صلى ا عليه واله وسلم في سعة علم علي عليه السلام دليلا هي الأخرى على أن الذي ضيع عليا وعلمَ عليٍ هم الصحابة والتابعون لهم من حوله ؟!!!

وحيث رجعنا على ابن القيم لا نقوم من مجلسه إلا بسؤال آخر نوجهه إليه وإلى الدكتور طه الدليمي:

من هم رجال الشيعة الذين كذبوا على علي وعلى الصادق عليهما السلام ؟

ومن الذي حكم بكذبهم وكيف ؟

ثم إن أئمة أهل البيت ممن أعترف المسلمون أجمع بعلمهم الغزير وبتفوقهم على قومهم ليس علي والصادق فقط فأين البقية الباقية أم كل هؤلاء كذب عليهم الشيعة ؟؟

كيف اسلمتموهم بايدي من يكذب ويفتري عليهم ؟

ولما لم تنقذوهم لتستفيدوا منهم ؟

لا أريد ان أقول أن هذه تساؤلات قد لا يجيبون عليها.. ولكنني أريد ان اقول بأن الاعتذار الحقيقي لا

يعرفه حتى الكثير من ابناء السنة فليس هو عند ابن القيم ولا غيره بل هو عند :

ابن خلدون الذي قال في مقدمته: "" وشذ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الأئمة ... وهي كلها أصول واهية ... ولم يحتفل الجمهور بمذاهبهم بل أوسعوها جانب الإنكار والقدح فلا نعرف شيئا من مذهبهم ولا نروي كتبهم ... فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة "".

مقدمة ابن خلدون:446

وأيضا تجده عند البخاري في تأريخه:

"" جعفر بن محمد في النفس منه شيء"" ؟!

وعند النبهان في كتابه تبديد الظلام حينما خطأ من يسمي جعفر بن محمد بالصادق؟!

تبديد الظلام:9

وعند الشهرستاني الذي صرح بأن غير الشيعة كانوا مهملين له ملتفتين عنه قال:"" وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم..."".

الملل والنحل:1/ 166.

إذن هذه هي الحقيقة في تغييب مذهب أهل البيت عليهم السلام وهذه هي النظرة الحقيقية إلى أهل البيت وإن خفيت على كثير من المتأخرين من أبناء السنة بعدما أخفيت بأيدي السابقين من مشايخهم ؟!

فلا حول ولا قوة إلا با العلي العظيم